النفحة الواحدة والعشرون: رَمَضَانُ شهر الانتصارات

انتصارات كبيرة شهدها شهر رَمَضَانُ المبارك، وفتوحات عالمية حدثت فيه، حتى أصبحنا نطلق عليه: شهر الانتصارات، ولم يكن ذلك غريباً أبداً، فالمقاتلون الصائمون الذين أخلصوا نواياهم للّه تعالى، وخاضوا معارك حاسمة، كانوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، وكالجسد الواحد في التكاتف والتناصر والاتحاد، فضلاً عن إيمانهم الراسخ، ويقينهم الجازم، بموعود نصر الله تعالى وفرجه.

وإليكم أهم المعارك التي انتصر فيها المسلمون في شهر الصيام:

أولاً: معركة بدر الكبرى:

في شهر رَمَضَانُ من السنة الثانية من الهجرة.

ثانياً: فتح مكة:

في شهر رَمَضَانُ من السنة الثامنة من الهجرة.

ثالثاً: معركة عين جالوت:

في شهر رَمَضَانُ بين المماليك المسلمين والمغول، وذلك سنة 658هـ.

رابعاً: معركة البويب:

في رَمَضَانُ سنة 13هـ وكانت بين المسلمين والفرس، وقد وقعت بعد معركة الجسر التي انهزم فيها المسلمون، وكانت على ضفاف نهر الفرات، في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

خامساً: معركة وادي لكة (شذونة):

وقد آذنت هذه المعركة بفتح الأندلس في سنة 92هـ على يد القائد طارق بن زياد في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك.

سادساً: معركة المنصورة:

وقعت في سنة 647هـ، بين الأيوبيين والصليبيين وقد لعب المماليك دوراً كبيراً في هذه المعركة، التي قتل فيها الصالح أيوب زوج شجرة الدر، ومع ذلك لم تتزعزع معنويات المسلمين، حيث استطاعوا أن يوقعوا هزيمة كبيرة بالصليبيين في مصر.

سابعـاً:

استطاع الظاهر بيبرس أن يستعيد أنطاكية من الصليبيين في عام 666هـ.

ثامنـاً:

في رَمَضَانَ عام 599هـ انتصر نور الدين محمود على الصليبيين في معركة حارم.

لم تكن هذه الانتصارات الرائعة التي حققها المسلمون بكثرة عدة وعتاد، ولا بتطور ترسانتهم العسكرية الحربية، إنما كانت بصدقهم مع الله تبارك وتعالى، وإخلاصهم النية، واستماتتهم في رفع راية الإسلام، والذود عن حياضه، والدفاع عن كرامة أهله وأتباعه.

ولا يشك مسلم أن النصر من عند الله تبارك وتعالى، وهذه عقيدة لا يختلف فيها اثنان، إلّا أن الحق ﷻ جعل للنصر أسباباً ينبغي الأخذ بها حتى يتحقَّق ذلكم النصر، وهذه الأسباب أو فلنسمِّها ـ السنن الربانية ـ أوضحها كتاب الله تعالى، ورسول الهدى ﷺ وهاك هي:

❑ أولاً: الإيمان بالله تعالى تصديقاً وتحقيقاً:

وفي هذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غَافر: 51].

إنه وعد الله القاطع الجازم بنصر المؤمنين، نصر في الحياة الدنيا، وذلك حين يهيمن الإيمان على القلوب، وتصبح مستلزماته الشرعية هي الحكم في قوانين البشر، وهي المرجعية لشؤونهم العامة والخاصة، وفي الآخرة يوم يقوم الأشهاد، وهذا الوعد أكده ربنا جل ثناؤه في كثير من الآيات كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا

نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الرُّوم: 47].

يا له من جزم ووعد ما أعظمه، إنه وعد من الخالق الكبير المتعال، الذي أوجب على نفسه نصر المؤمنين الصادقين، ولكن قد يبطئ هذا النصر ـ في تقدير الناس ـ لأنهم يحسبون الأمور بغير حساب وتقدير السماء، واللَّه هو الحكيم الخبير، يحقِّق وعده في الوقت المناسب، وفق مشيئته وسننه.

❑ ثانياً: وحدة الصف:

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: 46]، وهذه السنَّة الربانية يشهد لها التاريخ، ويقررها واقع البشر، بل ودنيا المخلوقات الأخرى، فالذئب لا يأكل من الغنم إلّا القاصية، وائتلاف القلوب، ووحدة الصفوف دليل على نصر مؤكد، لا يمكن أن يتأخر مرة ولا كرة، والتنازع معول يهدم كيان الأمة ويحيلها إلى أوزاع متناثرة، وشيع متناحرة، تزدريها الأمم، وتنهش من جسدها الوحوش.

ومسؤولية رصّ الصف وجمع الكلمة، تقع أولاً على عاتق الحكام والعلماء، ثم على المربين وغيرهم من فئات الأمة، فمن استطاع توحيد المسلمين وجمعهم فهو من أوجب الواجبات، وإن لم يستطع فليتق اللَّه ولا يفرق، وليخشَ اللَّه ولا يثير أسباب الضغينة والشتات، وليكفّ شره عن الناس، حتى يتمكنوا من لملمة صفوفهم وتوحيدها.

❑ ثالثاً: الصبر والمصابرة:

وهو عامل من أقوى عوامل النصر في ساحات الوغى، بل من المحال أن يتحقق نصر إلّا بالصبر، كما قال رسول اللَّه ﷺ: «**واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً، واعلم أن القلم قد جرى بما هو كائن**»[1] وفي هذا يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عِمرَان: 125].

---

(1) الحاكم في المستدرك، 3/ 623، رقم: (6303)، ومسند أحمد، 1/ 307، رقم: (2804).

وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: 200].

ما أجملها من وصية إلهية للمؤمنين، إنها وصية الصبر، لأن الصبر هو زاد الطريق في منهج الإسلام، إنه طريق طويل شاق، حافل بالعقبات والمكدرات، مفروش بالأشواك والدماء والأشلاء، مسرته في الابتلاء، وحبوره في الإيذاء، كل ذلك يستدعي صبراً ومصابرة حتى يتحقق النصر وترفع الراية.

❑ رابعاً: العـدة والعتـاد:

قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: 60].

الأمر الأول: إنه لابدّ للإسلام[1] من قوة ينطلق بها في الأرض لتحرير الإنسان، وأول ما تصنعه هذه القوة في حقل الدعوة، أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها، فلا يصدوا عنها، ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها.

والأمر الثاني: أن ترهب أعداء هذا الدين فلا يفكروا في الاعتداء على دار الإسلام، التي تحميها تلك القوة.

والأمر الثالث: أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء أن لا يفكروا في الوقوف في وجه المد الإسلامي وهو ينطلق لتحرير الإنسان كله في الأرض كلها.

والأمر الرابع: أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية، فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها، ولا تعترف بأن الألوهية للّه وحده، ومن ثَمَّ فالحاكمية له وحده سبحانه.

إن الإسلام ليس نظاماً لاهوتياً يتحقق بمجرد استقراره عقيدة في القلوب، وتنظيماً للشعائر، ثم تنتهي مهمته... إن الإسلام منهج عملي واقعي للحياة، يواجه

(1) في ظلال القرآن، 3/ 1543.

مناهج أخرى تقوم عليها سلطات، وتقف ورائها قوى مادية، فلا مفرّ للإسلام ـ لإقرار منهجه الرباني ـ من تحطم تلك القوى المادية، وتدمير السلطات التي تدمر تلك المناهج الأخرى، وتقاوم المنهج الرباني.

❑ خامساً: تحكيم شرع الله تعالى:

قال جل ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحَجّ: 41].

هذه هي بعض ملامح النصر والتمكين في هذه الآية، والتمكين في الأرض لا يكون إلّا بعد تحكيم شرع الله، عقيدة، وعبادة، وأخلاقاً، وسلوكاً، وهاهنا تبرز المؤشرات الأساسية للتمكين، وهي:

1	إقامة الصلاة.
2	إيتاء الزكاة.
3	الأمر بالمعروف.
4	النهي عن المنكر.

وهذه أسُّ الأسس في بناء المجتمعات وتشييد صروحها، وتحقيق النصر والتمكين، إنها خصال جمعت بين عواطف القلب والروح، والتي تتمثل في الصلاة، والتكافل الاجتماعي والاقتصادي، والذي يتمثل في الزكاة، ونشر الخير وتبليغ الرسالة، وصد الشر واستئصاله، والذي يتمثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهذا المعنى أشار إليه ربنا تبارك وتعالى في آيات أخر، منها قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النُّور: 55].

فإذا ما قام المسلمون بتحكيم شرع الله، ونبذ شريعة الطاغوت، والإذعان

لأوامر السماء، وهجر نزوات الهوى والنفس الأمارة بالسوء، ونصروا شرع الله، وأسهموا في تحقيقه يومذاك يأتي وعد الله بنصره، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ [محمد: 7]، إنه الشرط والجزاء، من نصر الله نصره، ومن دافع عن شرع الله حفظه، والجزاء من جنس العمل، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويراً.

❑ سادساً: التوكل على الله تعالى:

قال ﷻ: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٦٠﴾ [آل عمران: 160].

وهذا أصل عظيم وأساسي من أصول النصر والظفر، فمن لم يستشعر معنى التوكل على الله والثقة به سبحانه، لا يمكن أن يكون مقداماً عند اللقاء، ولا يمكن أن تثبت وترسخ قدمه في ميدان الوغى.

والتوكل على الله لا يتناقض مع أخذ الحذر، وإعداد العدة، بل من الواجب إعداد العدة والأخذ بالأسباب، لكن دون الاعتماد عليها، ودون أن يركن القلب لحظة ما، أو يستشعر أن النصر قادم بسبب قوة أو أسباب، إن الأسباب لا تضر ولا تنفع، ولا تقدم ولا تأخر، إنما الذي يفعل ويقدر ويرفع ويخفض وينصر ويهزم، هو الله تبارك وتعالى.

ومن استقرأ معارك المسلمين مع غيرهم، لاحظ أن أولياء الله لم ينتصروا بسبب صولجانهم وطيلمانهم، ولا بسطة في الجسم والمال، بل كان منطلق نصرهم آهات تصّعّد إلى السماء في جوف الليل، ودموع حارة غزيرة تتساقط في محراب العبودية والتوكل عليه سبحانه.

❑ سابعاً: التنسيق والمشاورة:

قال ﷻ: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ۝١٥٩﴾ [آل عمران: 159].

وهذا ما اهتم به النبي ﷺ في حضره وسفره، وهذا ما برز في غزواته

ولقاءاته، فكان النبي ﷺ يستشير أصحابه عند لقاء العدو، كما حدث في غزوة بدر والخندق، وغيرهما من الغزوات، ولطالما قال: «**أشيروا عليَّ أيها الناس، أشيروا عليَّ أيها الناس**»، ولا أريد أن أستطرد في تتبع أسباب النصر وركائزه، فالقرآن الكريم فياض بها، ذاخر بذكر معالمها وملامحها، ونبينا ﷺ حدثنا عنها.

لكن بالله عليكم يا مسلمون:

لو تأملنا في ما سلف من شروط النصر وركائز التمكين، ونظرنا إلى واقعنا اليوم وسألنا أنفسنا، هل تحققت فينا هذه الشروط لننتصر، أو تحقق بعضها؟

إن الواقع المأساوي المرير الذي تعيشه أمتنا، ما هو إلّا نتيجة أكيدة لبعدنا عن منهج الله تعالى في الحياة، وما نزل بنا من نكبات وويلات، ونكسات وهزائم ليس بغريب على الناظر العارف بسنن الله في الكون والحياة، أما الغافل الشارد عن تعاليم السماء، فإنه يتساءل: لماذا هذه الأوضاع المزرية؟ وكيف نهزم ونحن أصحاب الحق؟ وفينا نزل القرآن وكله حق وصدق؟ أيغلبنا المنحرفون الذين بدلوا دينهم وحرفوا كتبهم؟ أيضطهدنا الذين يفترون على الله الكذب؟

ويأتي الجواب القرآني الواضح الصارخ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران: 165]

نعم بما كسبت أيدينا، وما جنيناه من تنكب مسلك الحق، والحياد عن شرع الله ربنا ﷻ.

يا مسلمـــون:

كيف تنتصر أمة هجرت كتاب ربها، وهمشت تعاليمه عن مسرح أحداث البشر، واستعاضته بقوانين البشر ونزواتهم؟ كيف تنتصر أمة سرت البغضاء في نفوس أبنائها، وسيطرت الضغائن على قلوبهم، فعاشوا حياة نكدة من التنافس والتطاحن؟

كيف تنتصر أمة ظهرت فيها الفحشاء، وكثرت في أرجائها دور الخنا، وهي تعلم ولا تمنع؟

كيف تنتصر أمة أضحت بمجملها مرابية، التعامل الربوي جهاراً نهاراً في أسواقها المالية، وهي تعلم، بل تشجع ذلك وتدعم؟

يقول النبي ﷺ: «**يا معشر المهاجرين، خمس إن ابتليتم بهن، أعوذ باللّه أن تدركوهن، لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعملوا بها، إلّا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلّا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا الزكاة إلّا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد اللّه وعهد رسوله، إلّا سلط عليهم عدوهم من غيرهم وأخذوا بعض ما كان في أيديهم، وما لم يحكم أئمتهم بكتاب اللّه إلّا ألقى اللّه بأسهم بينهم**»(1).

أورد المؤرخون أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مرّ يوم القادسية على معسكرات جيشه ليلاً، فمر بقوم يصلون فقال: من هاهنا يأتي النصر، ومرّ بقوم نيام فقال: من هنا تأتي الهزيمة.

أيها الصائمـــون:

اغتنموا هذه الأيام المباركة، واجعلوها سبباً لعودتكم إلى اللّه تبارك تعالى، فمن كان منغمساً في المعاصي أو شارداً عن ربه عزّ وجلّ فليتب، وليقلع عما هو فيه من الذنوب والآثام، فمن يدري لعل عاصياً أو معصية ما، منعت تنزل النصر والرحمات من السماء.

ولا نياس يا إخوتي:

فما أصابنا يمكن أن نتداركه ونتلافى ما وقعنا فيه، وذلك عندما نغير ما في أنفسنا وسلوكنا ومنهجنا في الحياة، وقد قال اللّه عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرّعد: 11].

(1) رواه الحاكم في المستدرك، 4/ 583، رقم: (8623)، وابن ماجه، 2/ 1332، رقم: (4019).

وإذا ثبنا إلى رشدنا، ورجعنا إلى كنف ديننا فحاشا للَّه أن يتخلى عنا، ولكن قد يصيبنا البلاء والمحن، إلّا أن النصر لا شك آت، والظفر قريب، فبعد العسر يسر، ومن الشوك ينبت النرجس، وما بعد ظلام الليل البهيم إلّا إشراق الفجر المنير: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾ [يوسف: 110].

فلنجعل من هذه الأيام أيها الأحباب، محطة لمراجعة الحسابات، ورصّ الصفوف، وإعادة النظر في أوضاعنا وأحوالنا، لتكون نظرتنا إلى ما حققّه الأوائل من انتصارات في هذا الشهر الكريم، نظرة المعتبر المستفيد، وأن لا يمرّ علينا هذا الشهر مروراً سريعاً دون تحقيق تقدم أو تغيير.

اللَّهم عجِّل فرجك ونصرك لهذه الأمة.

اللَّهم اجعل لنا من لدنك سلطناً نصيراً.

ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.

والحمد للَّه رب العالمين.